

الانزياح في الدرس اللغوي: من تعدد المصطلح إلى بناء المفهوم

Deviation in Linguistic Studies: From the Multiplicity of Terminology to the Construction of Concept

قصاب عبد القادر

¹ جامعة النعامة (الجزائر)، gassab.abdelkader@cuniv-naama.dz

تاريخ الاستلام: 2026/05/12 تاريخ القبول: 2026/08/28 تاريخ النشر: 2026/09/30

ملخص:

يتناول هذا المقال مفهوم الانزياح في الدرس اللغوي بوصفه أحد المفاهيم الإشكالية التي تميزت بتعدد المصطلحات وتداخل المرجعيات بين الدرس اللغوي العربي واللسانيات الغربية. وينطلق البحث من رصد هذا التعدد الاصطلاحي الذي شمل مفاهيم مثل: العدول، الانحراف، الخرق الأسلوبي والخروج عن المعيار، مما أدى إلى غياب تحديد مفهومي دقيق يضبط طبيعة الانزياح ووظيفته في تحليل اللغة.

ويهدف المقال إلى الانتقال من هذا التشتت الاصطلاحي إلى محاولة بناء مفهوم أكثر اتساقاً للانزياح، من خلال استحضار جذوره في البلاغة العربية القديمة وربطه بالتنظيرات اللسانية والأسلوبية الحديثة. كما يبرز دوره في إنتاج الدلالة وتوسيع إمكانات التعبير الجمالي داخل النصوص الأدبية.

ويخلص البحث إلى أن بناء مفهوم الانزياح يقتضي تجاوز التعدد الاصطلاحي نحو مقارنة تكاملية تجمع بين التراث البلاغي العربي واللسانيات الحديثة.

كلمات مفتاحية: الانزياح؛ الدرس اللغوي؛ تعدد المصطلح؛ بناء المفهوم؛ الأسلوبية؛ البلاغة العربية؛ اللسانيات الحديثة

Abstract:

This article examines the concept of deviation in linguistic studies as a problematic notion characterized by terminological multiplicity and overlapping theoretical references between Arabic linguistic tradition and Western linguistics. The study begins by mapping this terminological diversity, which includes terms such as deviation, norm violation, stylistic deviation, and transgression, leading to a lack of a precise conceptual definition that determines its nature and function in language analysis.

The article aims to move from this terminological dispersion toward constructing a more coherent concept of deviation by tracing its roots in classical Arabic rhetoric and linking them to modern linguistic and stylistic theories. It also highlights its role in meaning production and in expanding aesthetic expression within literary texts.

The study concludes that constructing a stable concept of deviation requires moving beyond terminological plurality toward an integrative approach that bridges Arabic rhetorical heritage and modern linguistics.

Keywords: Deviation; linguistic studies; terminological multiplicity; concept construction; stylistics; Arabic rhetoric; modern linguistics

مقدمة:

يشكّل مفهوم الانزياح أحد المفاهيم المركزية في الدراسات اللسانية والأسلوبية الحديثة، لما يرتبط به من إشكاليات تتعلق بعلاقة اللغة بالإبداع، وبحدود الخروج عن المعيار اللغوي المألوف بوصفه آلية لإنتاج الدلالة الجمالية. وقد أصبح هذا المفهوم أداة إجرائية أساسية في تحليل الخطاب الأدبي، إذ يقوم على فكرة أن المعنى لا يتولد فقط من المطابقة اللغوية، بل من الانحراف المقصود عن النظام المألوف وإعادة تشكيله داخل السياق النصي، غير أن هذا المفهوم لم يتبلور في إطار واحد، بل عرف مساراً معرفياً مركباً بين التراث البلاغي العربي من جهة، والتنظير اللساني الغربي من جهة ثانية، قبل أن يُعاد استقباله في النقد العربي الحديث ضمن سياق اصطلاحى متذبذب. ففي التراث العربي، لم يظهر الانزياح كمصطلح مستقل، بل تفرّق حضوره بين مفاهيم مثل المجاز، العدول، النظم، الاتساع، والتخييل، وهي مفاهيم ارتبطت بفكرة تجاوز الاستعمال المألوف للغة قصد تحقيق الفصاحة والتأثير.

أما في اللسانيات الغربية الحديثة، فقد اتخذ مفهوم الانزياح طابعاً تنظيرياً أكثر دقة، حيث ارتبط بفكرة “المعيار اللغوي” منذ التصورات السوسيرية التي نظرت إلى اللغة كنظام من العلامات، ثم تطور مع رومان ياكوبسون الذي ربطه بالوظيفة الشعرية للغة، وتعمّق مع وموكاروفسكي بوصفه “انتهاكاً منظماً للمعيار”، قبل أن يتسع عند جان كوهن ليصبح أساساً لتحديد الأدبية، ويأخذ بعداً إجرائياً عند جيفري ليتش الذي شمل به مختلف مستويات اللغة.

غير أن انتقال هذا المفهوم إلى النقد العربي الحديث لم يكن انتقالاً سلساً، بل رافقته إشكالات تتعلق بالترجمة والتأصيل وتعدد المقابلات الاصطلاحية مثل: الانزياح، الانحراف، والعدول، مما أدى إلى اضطراب في تحديد دلالاته وضبط استعماله النقدي.

وفي هذا السياق، سوف نحاول في هذا المقال أن نتطرق إلى هذا المفهوم من خلال تتبع مساره بين الجذور التراثية والتنظير اللساني الغربي، ثم رصد كيفية تشكّله داخل النقد العربي الحديث في ظل إشكالية المصطلح وتعدد المرجعيات، من أجل الكشف عن بنيته المركبة وحدود توظيفه الإجرائي.

إشكالية البحث: ينطلق هذا البحث من إشكالية مركزية مفادها:

كيف انتقل مفهوم الانزياح من جذوره التراثية إلى التنظير اللساني الغربي، وكيف أعاد النقد العربي الحديث تشكيله في ظل إشكالية المصطلح وتعدد المرجعيات؟

كيف عالج التراث العربي ظاهرة الخروج عن المعيار قبل تشكل المصطلح؟

كيف أسهم الفكر اللساني الغربي في بلورة مفهوم الانزياح؟

ما طبيعة التحولات التي عرفها المفهوم في النقد العربي الحديث؟

وإلى أي مدى أثرت إشكالية المصطلح في استقراره المفهومي؟

يهدف هذا البحث إلى مقارنة هذه الإشكالات من خلال تتبع المسار التاريخي والمفاهيمي للانزياح، والكشف عن بنيته المركبة التي تجمع بين البعد اللغوي والبعد الجمالي، وبين المرجع التراثي والتأصيل اللساني الغربي.

ضبابية المصطلح:

يشكل المصطلح في أي حقل معرفي البنية التحتية التي يقوم عليها بناء المفاهيم، إذ لا يمكن تصور علم من العلوم دون جهاز اصطلاحى يضبط حدوده ويؤسس دقته. غير أن هذا الجهاز، في السياق العربي الحديث، لم يتشكّل في مسار طبيعي تراكمي، بل نشأ في ظل احتكاك مكثّف مع المعارف الغربية، الأمر الذي جعله يعيش حالة من التذبذب بين الترجمة والتأصيل. ومن هنا، لم

يعد المصطلح مجرد أداة تسمية، بل تحوّل إلى إشكالية قائمة بذاتها، تتداخل فيها رهانات اللغة والمعرفة والمنهج.

إن النظر إلى المصطلح من زاوية لغوية خالصة لا يكفي لفهم طبيعته، لأنه في جوهره بناء اصطلاحى يقوم على الاتفاق داخل جماعة علمية، وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حين جعل العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة اعتبارية تتحدد بالسياق والاستعمال (بوقمرة، 2017، صفحة 173). غير أن هذا "الاتفاق" الذي يُفترض أن يضمن استقرار المصطلح، يظل هشاً في العلوم الإنسانية، حيث تعدد المرجعيات وتباين المناهج، فينتج عن ذلك تعدد الدلالات لا يخلو من اضطراب.

وقد تنبّه عبد السلام المسدي إلى خطورة هذا الوضع، حين أكد أن المصطلح ليس مجرد وسيلة تعبير، بل هو مدخل إلى العلم ذاته، وأن أي خلل في ضبطه يؤدي إلى خلل في بناء المعرفة (المسدي، 1989، صفحة 11) فالمصطلح، في تصوره، يعيش داخل شبكة مفاهيمية، ولا يمكن نقله من سياق إلى آخر دون أن يتأثر ببنية هذا السياق. ومن هنا، فإن ترجمة المصطلحات ليست عملية لغوية بسيطة، بل هي فعل تأويلي يستدعي فهم الخلفيات النظرية التي أنتجتها.

وفي هذا الإطار، يبرز إشكال الترجمة بوصفه أحد أهم مصادر اضطراب المصطلح في النقد العربي المعاصر. فقد أدى تعدد الترجمات للمفهوم الواحد إلى تعدد في دلالاته، وهو ما أشار إليه عبد الملك مرتاض حين تحدث عن "التسيب الدلالي" الذي يطبع المصطلح النقدي العربي نتيجة غياب التنسيق بين الباحثين (مرتاض، 2010، صفحة 21) فالمصطلح الواحد قد يُترجم بألفاظ مختلفة، أو يُستعمل في سياقات متباينة، مما يفقده دقته ويحد من فعاليته الإجرائية، غير أن إشكالية المصطلح لا تتوقف عند حدود الترجمة، بل تمتد إلى مسألة التأصيل، أي محاولة ويتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة

ربط المفاهيم الحديثة بجذورها في التراث العربي. وفي هذا السياق، يرى صلاح فضل أن استيعاب المصطلح الحديث يقتضي إعادة قراءته في ضوء التراث، لا من أجل إثبات أسبقية تاريخية، بل من أجل بناء وعي نقدي قادر على التفاعل مع الحداثة دون انقطاع عن الماضي (فضل، 1992، الصفحات 311-312) غير أن هذا المسعى، رغم أهميته، قد ينزلق أحياناً إلى نوع من الإسقاط، حيث يتم إلحاق المفاهيم الحديثة بنظائر تراثية دون مراعاة الفروق المنهجية بين السياقين، ومن

جهة أخرى، تبرز إشكالية الاستعمال، حيث لا يقتصر اضطراب المصطلح على تعريفه، بل يمتد إلى كيفية توظيفه داخل الخطاب النقدي. فبعض المصطلحات تُستعمل بشكل فضفاض، دون تحديد دقيق لحدودها، مما يؤدي إلى تضخمها الدلالي. وقد أشار يوسف وغليسي إلى أن هذا التضخم ناتج عن غياب الضبط المعجمي، وعن التردد بين مرجعيتين: غربية تسعى إلى الدقة، وتراثية تميل إلى الاتساع (وغليسي، 2008، صفحة 11)

وفي مقابل هذه الاختلالات، ظهرت دعوات إلى ضرورة ضبط المصطلح من خلال العمل الجماعي والمؤسسي، عبر إنشاء معاجم متخصصة وتوحيد الترجمات. ويؤكد محمد أحمد ويس أن تجاوز أزمة المصطلح يمر عبر التمييز بين مستوياته المختلفة: مستوى التسمية، ومستوى المفهوم، ومستوى الاستعمال، لأن الخلط بينها يؤدي إلى غموض معرّفي يعوق التحليل. (ويس، 1997، الصفحات 58-60) وهذا التمييز يسمح بإعادة بناء المصطلح على أسس أكثر دقة، بعيداً عن الارتجال.

إن المتأمل في مسار المصطلح في الثقافة العربية الحديثة يلاحظ أنه يعيش حالة من "الانتقال الدائم"، فهو لم يستقر بعد في نسق معرّفي واضح، بل يظل معلقاً بين الترجمة والتأصيل، وبين الدقة والاتساع. وهذه الحالة ليست بالضرورة سلبية، إذ يمكن أن تُفهم بوصفها مرحلة من مراحل تشكل المعرفة، لكنها تظل في حاجة إلى وعي نقدي يضبطها ويوجهها. وعليه، فإن إشكالية المصطلح لا يمكن اختزالها في جانب واحد، بل هي نتيجة تفاعل معقد بين اللغة والمعرفة والمنهج. ولا يمكن تجاوزها إلا من خلال مشروع علمي متكامل، يقوم على فهم عميق للمفاهيم في سياقاتها الأصلية، وعلى قدرة نقدية لإعادة إنتاجها داخل السياق العربي، بما يضمن لها الدقة والفاعلية في آن واحد.

مصطلح الانزياح عند العرب القدامى:

إذا كان مصطلح "الانزياح" حديث النشأة في النقد الأدبي، فإنّ مضمونه ليس كذلك، إذ تكشف المدونة البلاغية العربية عن وعي عميق بظاهرة الخروج عن المألوف اللغوي، غير أنّ هذا الوعي توزّع تحت مسميات متعددة مثل: العدول، الاتساع، المجاز، النظم، التحويل. ومن هنا، فإنّ دراسة الانزياح في التراث تقتضي تتبّع هذه المصطلحات بوصفها تحليلات لمفهوم واحد، هو إعادة تشكيل اللغة خارج معيارها العادي، يتأسس هذا التصور منذ وقت الطريق، يعرفها العربي

والعجمي... " (عثمان، 1965، الصفحات 131-132)، فالجاحظ لا يقرّ فقط بشيوع المعاني، بل يلمّح إلى أنّ التفاضل إنما يقع في طريقة إخراجها، أي في العدول بها عن صورتها العادية إلى صورة فنية. ومن ثمّ، فإنّ الانزياح هنا يتجلى بوصفه تحويلاً أسلوبياً يمنح المعنى طابعه الجمالي.

ويتعمّق هذا الوعي مع عبد القاهر الجرجاني، الذي أسّس لنظرية النظم، حيث يقول: " ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو... " (الجرجاني، 2002، صفحة 127)، إنّ هذا التصور يجعل البلاغة قائمة على العلاقات بين الألفاظ، لا على الألفاظ ذاتها، وهو ما يعني أنّ أي تغيير في هذه العلاقات (تقديم، تأخير، فصل، وصل) هو نوع من العدول التركيبي، أي انزياح عن النسق المعياري. ومن هنا، يمكن اعتبار الجرجاني المؤسس الحقيقي للفهم النبوي للانزياح

غير أنّ التحول الأعمق يظهر عند ابن جني، الذي لا يكتفي بالإشارة إلى التقديم والتأخير، بل يطرح مفهوماً أوسع هو "اتساع العربية"، حيث يقرر أن العرب "يتوسعون في كلامهم ويحذفون وي زيدون ويقدمون ويؤخرون" (جني، 1952، صفحة 120)، هذا الطرح ينقل المسألة من مجرد ظاهرة بلاغية إلى خاصية جوهرية في اللغة العربية، تجعلها قابلة للمرونة والتصرف. فالانزياح، في ضوء ابن جني، ليس مجرد انحراف عن القاعدة، بل هو وجه من وجوه الطاقة التعبيرية للغة، إذ يسمح بتوليد دلالات متعددة من بنية واحدة. وهذا ما يجعل تصويره أقرب إلى الفهم الحديث للانزياح بوصفه إمكاناً كامناً في اللغة، لا خروجاً طارئاً عليها.

ويأتي أبو هلال العسكري ليؤكد هذا المعنى من زاوية بلاغية، حين ربط الفصاحة بحسن الاختيار والتصرف في الكلام (العسكري، 1981، الصفحات 12-13)، مما يدل على أن البلاغة تتحقق عبر الانحراف الواعي عن الاستعمال المبتدل.

كما نجد عند ابن رشيق القيرواني حديثاً عن "غربة اللفظ" و"حسن التأليف" (خلدون، 1981، صفحة 175)، وهو ما يعكس إدراكاً بأن الإبداع يقوم على مخالفة المؤلفون دون الإخلال بالفهم، وهو لبّ فكرة الانزياح.

ولا يغيب هذا التصور عن حازم القرطاجني، الذي يرى أن الشعر يقوم على التخيل والتأثير (جاد الله، 2016، الصفحات 323-353)، وهو ما لا يتحقق إلا عبر تحويل اللغة من وظيفتها الإخبارية إلى وظيفة إيحائية، أي عبر الانزياح.

أما السكاكي، فقد بلور هذا المفهوم ضمن مباحث المجاز، حيث يقوم التعبير على نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة (الجرجاني ١، 1889، صفحة 1)، وهو ما يمثل الشكل الأوضح للانزياح الدلالي من جهة، ومن جهة أخرى تركيب عام للمفهوم في التراث. ومن خلال هذه التصورات، يمكن استخلاص أن ما يسمى حديثاً "انزياحاً" قد ظهر في التراث تحت مسميات متعددة:

العدول → عند البلاغيين (تغيير النسق)

الاتساع → عند ابن جني (مرونة اللغة)

المجاز → عند البيانيين (نقل الدلالة)

النظم → عند الجرجاني (إعادة ترتيب العلاقات)

التخييل → عند حازم (تحويل الوظيفة)

تكشف هذه المصطلحات عن وحدة عميقة، مفادها أن اللغة الأدبية لا تُبنى على المطابقة، بل على إعادة تشكيل المألوف، وهو جوهر الانزياح، ومن خلال هذه الإطالة على الباحثين القدامى يتبين أن الانزياح، في جوهره، مفهوم تراثي قبل أن يكون حديثاً، غير أنّ التراث لم يجمعه تحت مصطلح واحد، بل ورّعه على مفاهيم متعددة بحسب زوايا النظر. ومن ثمّ، فإنّ الجهد الحديث لا يتمثل في اكتشاف الظاهرة، بل في توحيدها نظرياً وإدراجها ضمن إطار مفاهيمي شامل.

الانزياح عند العرب المحدثين:

ينبغي أن يبدأ النظر في مصطلح الانزياح من لحظة ارتبائه الأولى داخل الدرس العربي، أي من إشكالية المصطلح ذاته؛ فالمفهوم لم يدخل بوصفه وحدة مستقرة، بل بوصفه أثراً لنقلٍ معرفي غير مكتمل. وهنا تتبلور قراءة نور الدين السد التي تمثل نقطة الانطلاق المنهجية، إذ يصرّ على أنّ: "المصطلح لا يُفهم إلا داخل الجهاز المفاهيمي الذي ينتمي إليه" (السد، 2010، صفحة 198)، هذا لا يقدّم تعريفاً، بل يضع شرطاً للفهم؛ فالانزياح ليس كلمة تُقابل كلمة، بل مفهوم مشروط بنسقٍ نظري. ومن ثمّ، فإنّ التعدّد الاصطلاحي الذي عرفه المصطلح في العربية—انزياح، انحراف، عدول—لا يُقرأ عند السد كتنوعٍ مشروع، بل كعرضٍ لخلل أعمق، "تعدد المقابلات دليل على عدم استقرار المفهوم" (السد، 2010، p. 11) وهنا يتحول السؤال من ما هو الانزياح؟ إلى كيف نفهمه؟، أي من التعريف إلى الاستمولوجي، غير أنّ هذا التفكيك لا يبقى معزولاً، بل

بمَهْدٍ لمرحلة ثانية يتغير فيها مركز النظر، وهو ما نجده عند محمد مفتاح؛ إذ لم يعد الانشغال منصباً على ضبط المصطلح، بل على كيفية اشتغاله داخل الخطاب.

ففي نصوصه يرد أنّ: "الانزياح يخلخل أفق التوقع لدى المتلقي"، هذه تنقل المفهوم من البنية إلى التلقي؛ فالانزياح لا يُقاس بمدى مخالفته للقاعدة، بل بقدرته على إحداث توتر تأويلي. ومن هنا، فإنّ تعدد صور الانزياح لا يعود إلى اختلاف لغوي، بل إلى اختلاف في أفق القراءة، حيث يصبح: ما هو مألوف عند قارئ، منزاحاً عند آخر، إذا كان السد قد كشف عن أزمة المصطلح، فإن مفتاح يحوّلها إلى طاقة تأويلية، فيعيد توظيف التعدد بدل اعتباره خللاً. غير أنّ هذا الانفتاح على التلقي يحتاج إلى ضبطٍ لساني، وهو ما يتكفّل به عبد السلام المسدي، الذي يعيد إدخال الانزياح في إطار أكثر توازناً. فهو يقرّر أنّ، "الانزياح خروج عن المألوف" (المسدي ع. ١، 2006، p. 97)، لكن هذه العبارة لا تُفهم عنده بمعزل عن بعدها الدلالي، إذ يضيف في سياقات أخرى (بصياغات متقاربة): "هذا الخروج يُحدث مفاجأة دلالية" (المسدي ع.، 2006، صفحة 100)

وهنا يلتقي مستويان: الخرق (بنية)، والإنتاج (دلالة) كما يلتقي مع السد في التنبيه إلى أنّ التعدد الاصطلاحي يعكس:

"قللاً في استيعاب المفهوم" (المسدي ع.، 2006، صفحة 100) غير أنّ الفرق بينهما واضح: السد يظل في مستوى النقد، بينما المسدي ينتقل إلى التشغيل التحليلي للمفهوم. ومن هذا التوازن، يصل النقاش إلى مرحلة أكثر استقراراً مع صلاح فضل، الذي يسعى إلى تقعيد المفهوم أسلوبياً. ففي كتابه، يصرّح: "الانزياح هو الخروج عن الاستعمال اللغوي المألوف لتحقيق قيمة تعبيرية" (فضل، 1992، صفحة 48)، هذا التعريف يجمع بين:

البنية (الخروج)، والوظيفة (القيمة التعبيرية)، كما يتدخل فضل في إشكالية الترجمة ذاتها، مفضلاً مصطلح "الانزياح" لأنه:

"أبعد عن الدلالة السلبية التي يوحي بها الانحراف" (فضل، 1992، صفحة 185) إذا كان السد قد نقد الترجمة، فإن فضل يسعى إلى تهذيبها ثقافياً، بحيث تنسجم مع الحسن اللغوي العربي، لكن هذا الاستقرار النسبي للمفهوم لا يلبث أن ينفث من جديد مع جميل حمداوي، الذي يدفع بالانزياح إلى أفق أوسع، حيث لا يعود مقتصرًا على اللغة، بل يشمل بنية النص في كليته. ففي

تحليلاته يرد—بصياغة دقيقة من خطابه—أن: "الانزياح يشمل كل خروج عن النسق المؤلف في مختلف مستويات الخطاب"، وهنا ننقل من: الانزياح كظاهرة لغوية (المسدي)، إلى الانزياح كمبدأ أسلوب (فضل)

إلى الانزياح كمنظومة نصية شاملة، فهو يرى أنَّ الانزياح يتجلى في: الصورة، الإيقاع، البنية السردية، تنظيم الخطاب هذا التوسيع يمنح المفهوم قوة تفسيرية كبيرة، لكنه يعرضه لخطر الذوبان المفهومي، حيث يصبح كل شيء انزياحًا.

التركيب السردى النهائي (من الإشكال إلى التأصيل)، يمكن الآن تتبّع المسار الكامل للمفهوم:

مع السد → الانزياح إشكال مصطلحي (كيف نفهمه؟)

مع مفتاح → الانزياح تؤثر تأويلي (كيف يُستقبل؟)

مع المسدي → الانزياح إنتاج دلالي (كيف يعمل؟)

مع صلاح فضل → الانزياح مبدأ أسلوب (كيف يُقَعَّد؟)

مع حمداوي → الانزياح بنية نصية (كيف يشمل النص؟)

بهذا التسلسل، يتبيّن أنَّ إشكالية الترجمة والتأصيل لا تُحلّ في مستوى واحد:

فترجمة المصطلح لا تكفي (كما بيّن السد)

وتأصيله في التراث لا يعني مطابقته (كما يفهم من المسدي)

وتوسيعه لا ينبغي أن يلغي حدوده (كما يُستفاد من حمداوي)

ومن ثمّ، فإنّ الانزياح في اللسانيات العربية ليس مفهومًا مستقرًا، بل هو مسار معرفي

يبدأ بالاضطراب الاصطلاحي، ويمرّ عبر التعدد، لينتهي إلى بناء تصور مركّب يجمع بين: الخرق

البنوي + التوتر التأويلي + الوظيفة الجمالية + الامتداد النصي

الانزياح عند الغرب:

لا يمكن مقارنة مصطلح الانزياح في اللسانيات العربية مقارنةً علمية دقيقة دون الوعي

بأننا أمام مفهوم "عابر للأنساق"، تشكّل في سياق غربي محدد، ثم أُعيدت صياغته داخل سياق

عربي مغاير. ومن هنا، فإنّ أي قراءة مقارنة لا بد أن تنطلق من مساءلة البنية المفهومية ذاتها، لا

من مجرد تتبع التعريفات.

لقد تأسس المفهوم في اللسانيات الغربية على خلفية مركزية هي فكرة "المعيار"، وهي فكرة بلورها

فردينان دي سوسير حين قرّر أنّ: ("اللغة نظام من العلامات") (فردينان، 1969، صفحة 30).

غير أنّ هذا التعريف، في عمقه، لا يقدّم الانزياح، بل يهتئ له؛ إذ لا يمكن الحديث عن خرقٍ إلا بوجود نظام يُخرق. فـ الانزياح في أصله الغربي ليس ظاهرة مستقلة، بل هو نتيجة ثانوية لوجود بنية معيارية.

لكن التحول الحاسم لم يحدث إلا مع رومان ياكوبسون، الذي نقل اللغة من كونها نظامًا إلى كونها وظيفة، حيث يقول: ("الوظيفة الشعرية تركز على الرسالة لذاتها") (أوكان، 2001، صفحة 51)، إنّ هذا التحول من "النظام" إلى "الوظيفة" هو الذي فتح الباب أمام الانزياح بوصفه ظاهرة أسلوبية، لأن اللغة لم تعد مجرد وسيلة نقل، بل أصبحت موضوعًا للانتباه. عند ياكوبسون، الانزياح لا يُفهم كخرقٍ سلبي، بل كإعادة توزيع للعلاقات داخل الخطاب، وهو ما يجعل النص ينتج دلالاته عبر بنيته، غير أنّ الصياغة الأكثر دقة جاءت مع يان موكاروفسكي الذي يرى أنّ: ("اللغة الشعرية انتهاكٌ منظمٌ للمعيار" (موكاروفسكي، 1984، صفحة 41) هذا التعريف يضعنا أمام مفارقة منهجية: كيف يكون الانتهاك منظمًا؟ أذن الانزياح هنا ليس خروجًا عن النظام، بل هو انتقال من نظام إلى نظام آخر، أي من المعيار العادي إلى معيار جمالي.

ثم يأتي جان كوهن ليمنح المفهوم طابعًا حادًا، حيث يقول: ("الشعر انحراف عن اللغة العادية") (كوهن، 2010، صفحة 309) إنّ كوهن لا يكتفي بوصف الظاهرة، بل يجعلها معيارًا لتعريف الأدبية نفسها. هذا الطرح، رغم قوته، ينطوي على اختزال؛ إذ يفترض أنّ كل أدبية قائمة على الانزياح، متجاهلاً النصوص التي تحقق شعريتها من داخل المعيار.

أما جيفري ليتش فيقدّم تصوّرًا إجرائيًا، حيث يقول: ("الانزياح يمكن أن يحدث في جميع مستويات اللغة"). ينجح ليتش في تحويل المفهوم إلى أداة تحليل، لكنه يفقد البعد الفلسفي الذي نجده عند كوهن وموكاروفسكي.

إن مفهوم الانزياح في الدراسات الغربية لا يحيل إلى معنى واحد ثابت، وإنما يتشكل عبر مجموعة من المصطلحات والتصورات المتقاربة، مثل L'écart، و la déviation، و la déviance، و le style، و la fonction poétique. وتجمع هذه التصورات، بدرجات مختلفة، على أن خصوصية التعبير الأدبي تتجلى في الطريقة التي يعيد بها الكاتب تشكيل المادة اللغوية المألوفة وإخراجها من نخطها المعتاد لإنتاج دلالات وآثار جمالية جديدة.

يعدّ مفهوم الانزياح (L'écart) من المفاهيم المركزية التي ارتبطت بالدراسات الأسلوبية الغربية، ولا سيما في البحث عن الخصائص التي تميز اللغة الأدبية (langage littéraire) عن الاستعمال اللغوي العادي أو المألوف. وقد تعددت المقابلات الاصطلاحية للمفهوم في الدراسات الغربية، من أبرزها: الانزياح (L'écart)، والخرق (la déviation)، والانحراف (la déviance) وهي مصطلحات تحيل، على اختلاف دلالاتها، إلى خروج التعبير عن النمط اللغوي المألوف أو عن المعيار (la norme)

وقد ارتبط مفهوم الانزياح في الدرس الأسلوبي الحديث بمحاولة تفسير الأسلوب (le style) بوصفه اختياراً لغوياً يتجاوز الاستخدام المعتاد للغة، بما يحدث أثراً جمالياً أو دلالياً في الخطاب. ومن هذا المنظور، لا يُنظر إلى الانزياح باعتباره خطأً لغوياً، وإنما بوصفه عدولاً مقصوداً عن المألوف لتحقيق وظيفة فنية أو تعبيرية .

ويعد شارل بالي (Charles Bally) من أبرز الأسماء التي مهدت للدراسات الأسلوبية الحديثة، من خلال اهتمامه بالقيمة التعبيرية للغة (valeur expressive du langage)، وإن كان مفهوم الانزياح بصيغته الاصطلاحية لم يتبلور لديه على النحو الذي سيظهر لاحقاً في بعض الاتجاهات الأسلوبية.

ثم تطور المفهوم لدى الأسلوبيين البنيويين (stylisticiens structuralistes)، ولا سيما مع ليو سبيتزر (Leo Spitzer)، الذي ربط الخصائص الأسلوبية بالانحراف عن الاستعمال المألوف، ومع جان كوهين (Jean Cohen) الذي جعل مفهوم الانحراف عن المعيار (écart par rapport à la norme) أساساً مهماً في تفسير شعرية اللغة.

كما أسهم رومان ياكبسون (Roman Jakobson) في توسيع النظر إلى الظاهرة من خلال مفهوم الوظيفة الشعرية (fonction poétique)، إذ جعل التركيز على الرسالة ذاتها، وعلى تنظيم عناصرها وعلاقاتها، أساساً لفهم خصوصية الخطاب الأدبي. ومن ثم أصبح الانزياح مرتبطاً بمفهوم أوسع يتمثل في الشعرية (la poétique)

يمثل مشروع رولان بارت منعطفاً حاسماً في مسار النقد الأدبي الحديث، إذ انتقل بالنص من كونه بنية مغلقة تُحتزل في قصد المؤلف إلى فضاء دلالي تتفاعل داخله العلامات بصورة

مستمرة. وفي هذا الإطار يتخذ الانزياح بعداً أعمق من مجرد الخروج الأسلوبى عن المؤلف، لأنه يغدو آلية لإعادة إنتاج المعنى داخل الخطاب الأدبي. فالنص عند بارت لا يقدم دلالة ثابتة ونهائية، بل يؤسس حركة متواصلة للدوال التي تفتح على احتمالات تأويلية متعددة، لذلك تصبح اللغة هي الفاعل الحقيقي في عملية الكتابة، بينما يتراجع المؤلف إلى مجرد أثر داخل نسيج النص وتكتسب الكلمات، وفق هذا التصور، كثافتها من تاريخ استعمالها السابقة، إذ تحمل في بنيتها بقايا دلالية وثقافية تستعاد ضمن سياقات جديدة، فتتشكل من خلالها شبكة إيحائية تتجاوز المعنى المباشر.

ومن ثم فإن الانزياح لا يتحقق في مستوى الزخرفة اللغوية فحسب، بل يظهر في قدرة الخطاب على خلخلة العلاقات المألوفة بين الدال والمدلول وإنتاج دلالات متجددة (بارت، 1980، صفحة 38) ويبدو في هذا السياق أن أهمية تصور بارت تكمن في كونه حرّ القراءة الأدبية من سلطة المعنى الواحد، وجعل النص بنية مفتوحة قابلة للتأويل المستمر، وهو ما منح الانزياح وظيفة معرفية وجمالية في آنٍ واحد، تتجاوز حدود البلاغة التقليدية إلى بناء رؤية جديدة للغة والأدب.

وعلى هذا الأساس شهد الدرس اللساني تحولاً بارزاً مع نعيم تشومسكي الذي أعاد بناء النظرية اللغوية ضمن ما عُرف بالنحو التوليدي التحويلي، حيث لم تعد اللغة نسقاً ثابتاً من القواعد الجاهزة، بل أصبحت قدرة ذهنية كامنة يمتلكها المتكلم وتمكّنه من إنتاج عدد لا متناهٍ من الجمل انطلاقاً من قواعد محدودة. ومن هنا ميّز تشومسكي بين “الكفاءة” باعتبارها المعرفة الضمنية بقوانين اللغة، و“الإنجاز” بوصفه التحقق الفعلي لهذه المعرفة في الاستعمال الواقعي للكلام.

وبهذا التصور تغدو اللغة طاقة إبداعية تتجسد عبر مستويات متعددة من الأداء، إذ لا يكتفي المتكلم باستعمال التراكييب الجاهزة، وإنما يعيد تشكيلها واختيار ما يلائم المقام من بين إمكانات تركيبية عديدة تتيحها اللغة. ولذلك ارتبطت البنية التحويلية بفكرة التوليد التي تمنح الخطاب قابلية التنوع والتجدد، فتتحول الجملة من قالب جامد إلى بنية دينامية قابلة لإنتاج صيغ مختلفة انطلاقاً من أصل تركيبى واحد) (القاسم، 2000، صفحة 178)

ويكشف هذا الطرح في تقديري عن انتقال التفكير اللساني من دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خارجية ثابتة إلى النظر إليها باعتبارها نشاطاً ذهنياً خلاقاً، وهو ما مهد لاحقاً لتوسيع مفهوم الانزياح؛ لأن تعدد البنى التحويلية وإمكانات الاختيار داخل اللغة يفتح المجال أمام تشكّل تعبيرات تتجاوز النمط المألوف وتمنح الخطاب بعده الإبداعي والجمالي.

يتّسع مفهوم الانزياح عند تودوروف ليغدو فضاءً رحباً لتجليات الشعرية داخل الخطاب الأدبي، حيث لا يُفهم بوصفه مجرد خروج لغوي عن المألوف، بل باعتباره بنية فنية مستقرة تُنتج أدبية النص عبر منظومة من الوسائط والأساليب التعبيرية. ومن هذا المنظور يصبح الانزياح إنجازاً جمالياً يكشفه الخطاب الأدبي في أثناء تشكّله، لا لاحقاً له. وفي هذا السياق يستثمر الباحث مقولة “الفن لغة داخل لغة”، بما تعنيه من أن النص الأدبي لا يقدّم الواقع في صورته الخام، بل يعيد إنتاجه عبر تمثيلات دلالية مشحونة بالاختيار والرؤية. وعليه، فإننا لا نواجه في النصوص الأدبية أحداثاً أو وقائع مباشرة، وإنما صوراً مُعاد تشكيلها وفق منظور مخصوص. ومن ثمّ فإن اختلاف زاوية الرؤية لواقعة واحدة يؤدي إلى تعدد تمثلاتها، بحيث يغدو لكل تمظهر من تمظهرات الموضوع الواحد كيانه الدلالي الخاص، المتشكل وفق الطريقة التي يُقدّم بها (الميلودي، 1990، صفحة 27).

ويقوم هذا التصور بوصفه انتقالاً حاسماً من فهم الانزياح كزينة أسلوبية إلى اعتباره آلية معرفية وجمالية في آنٍ واحد. فتودوروف هنا لا يكتفي بتوسيع مفهوم الانزياح، بل يعيد تأسيس العلاقة بين اللغة والواقع داخل النص الأدبي، بحيث يصبح الواقع نفسه غير قابل للإدراك إلا عبر وسيط لغوي مشكل لا ناقل فقط. هذا التحول يضعنا أمام فكرة مركزية مفادها أن “المعنى الأدبي لا يُعطى بل يُبنى”، وأن كل بناء لغوي هو في الوقت نفسه بناء لرؤية للعالم.

ومن جهة أخرى، فإن استحضار فكرة “الفن لغة داخل لغة” يفتح الباب أمام تصور مزدوج للخطاب الأدبي: فهو من جهة يستند إلى نظام لغوي مشترك، ومن جهة أخرى يعيد تفكيك هذا النظام وإعادة تنظيمه وفق منطق جمالي خاص. وهنا تتجلى قوة الانزياح بوصفه ليس مجرد انحراف، بل إنتاجاً لواقع بديل داخل النص، واقع لا ينافس العالم الخارجي بقدر ما يعيد تأويله.

وعليه، فإن اختلاف الرؤى حول واقعة واحدة لا ينتج مجرد تنوع في الوصف، بل يولّد تعدداً في “الوقائع نفسها داخل النص”، وهو ما يجعل الأدب مجالاً لإعادة خلق العالم لا لتسجيله.

وهذا ما يمنح الخطاب الأدبي طابعه الكثيف والمفتوح في الآن ذاته، حيث تصبح الحقيقة النصية متعددة، نسبية، ومشروطة بطريقة التمثيل أكثر من كونها معطى ثابتا.

وانسجاما من هذا التطور عمل هنريش بليث من تطوير مفهوم الانزياح، إذ لم يعد عنده مجرد خروج عن المؤلف اللغوي، بل أصبح مبدأً مكتملاً لمبدأ "الأثر الانفعالي" الذي يركز على تأثير الخطاب في المتلقي. ويرى أن هذين المبدأين يشكلان معاً الأساس الذي تقوم عليه أنساق الصور البلاغية التقليدية. وبناءً على هذا التصور، قدّم بليث نموذجاً أسلوبياً جديداً يقوم على ما يمكن تسميته بأسلوبية الانزياح، حيث تُفهم الظواهر الأسلوبية من خلال درجة انحرافها عن الاستعمال العادي للغة وما تخلقه من أثر نفسي وجمالي في القارئ. كما لا يقتصر تحليله على الجانب البنيوي للنص، بل يمتد إلى البعد التداولي، أي دراسة اللغة في سياق الاستعمال والتأثير والتواصل ما يميّز تصور بليث أنه يحاول الجمع بين الشكل اللغوي (الانزياح) والتأثير النفسي (الأثر الانفعالي)، مما يجعل التحليل الأسلوبي عنده أكثر شمولاً، لأنه لا يكتفي بوصف البنية، بل يهتم أيضاً بكيفية تلقي النص وتأثيره في المتلقي داخل سياقه التداولي. (بليث، 1999، صفحة

(65)

خاتمة:

وبعد هذا العرض الذي تتبعنا فيه مسار مفهوم الانزياح بين التراث البلاغي العربي والتصورات اللسانية الغربية الحديثة، وما ارتبط به من إشكالات تتعلق بالمصطلح والتأصيل وبناء المفهوم، يتضح أنّ الانزياح يمثل أحد المفاهيم المركزية في الدراسات اللسانية والأسلوبية، لما يؤديه من دور في إنتاج الدلالة وتشكيل البنية الجمالية للنص. كما يتبين أنّ هذا المفهوم لم يتشكل في سياق معرفي واحد، بل جاء نتيجة تفاعل بين المرجعية التراثية العربية والمنجز اللساني الغربي الحديث. ومن خلال ذلك يمكن إجمال أهم النتائج التي خلص إليها البحث في العناصر الآتية:

1- بيّن البحث أنّ إشكالية المصطلح في الدرس اللساني العربي الحديث نتجت عن تعدد الترجمات وتداخل المرجعيات، مما أدى إلى اضطراب دلالة مفهوم الانزياح وعدم استقراره الاصطلاحي.

- 2- كشف التراث البلاغي العربي عن حضور مبكر لظاهرة الانزياح من خلال مفاهيم مثل: العدول، المجاز، النظم، الاتساع، والتخييل، وهو ما يدل على وعي العرب القدامى بالخروج الفني عن المألوف اللغوي.
- 3- أسهمت اللسانيات الغربية الحديثة في تقعيد مفهوم الانزياح وربطه بفكرة "المعيار اللغوي"، خاصة مع فردينان دي سوسير ورومان ياكبسون وموكاروفسكي وجان كوهن.
- 4- تطور مفهوم الانزياح داخل الدراسات الأسلوبية ليصبح أداة لتحليل الخطاب الأدبي والكشف عن الوظيفة الجمالية للغة، ولم يعد مجرد انحراف سلمي عن القاعدة اللغوية.
- 5- أبرز النقد العربي الحديث محاولات متعددة لإعادة بناء مفهوم الانزياح، حيث انتقل من مجرد إشكال ترجمي إلى مفهوم تحليلي يجمع بين البنية والدلالة والتلقي.
- 6- يتحدد الانزياح بوصفه آلية لغوية وجمالية تقوم على إعادة تشكيل العلاقات داخل النسق اللغوي من أجل إنتاج دلالات جديدة وتوسيع إمكانات التعبير الأدبي.
- 7- خلص البحث إلى أنّ بناء مفهوم دقيق للانزياح يقتضي تجاوز التعدد الاصطلاحي نحو مقارنة تكاملية تجمع بين التراث البلاغي العربي والمنجز اللساني والأسلوبي الحديث.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن جني. (1952). الخصائص. بيروت: دار الهدى.
2. أبو هلال العسكري. (1981). الصناعتين (الكتابة والشعر). بيروت لبنان : دار الكتب العلمية.
3. أحمد محمد ويس. (1997). الانزياح وتعدد المصطلح. صفحة 12.
4. الجاحظ، أوب عمرو عثمان. (1965). الحيوان. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
5. الشريف على بن محمد الجرجاني. (1889). التعريفات. مصر: المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية .



6. بشير خلدون. (1981). الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي . الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
7. جان كوهن. (2010). الحقيقة الشعرية في ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية، بشير تاويريت. الأردن : عالم الكتاب الحديث.
8. دوسير، فردينان. (1969). محاضرات في اللسانيات العامة. إعداد شارل بالي وألبرت سيشهاي، دار بايو، باريس.
9. رولان بارت. (1980). درجة الصفر الكتابة. دار الطليعة: بيروت.
10. سحر جادالله. (2016). التخييل في شعر حازم القرطاجني، في ضوء فكره النقدي. مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، صفحة 30.
11. صلاح فضل. (1992). بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
12. عبد السلام المسدي. (2006). الأسلوبية والأسلوب. دار الكتاب الجديد، دار أويا لنشر والتوزيع والتنمية الثقافية .
13. عبد القاهر الجرجاني. (2002). دلائل الإعجاز في علم المعاني. صيدا بيروت: المكتبة العصرية.
14. عبد السلام المسدي. (1989). قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب.
15. عبد المالك مرتاض. (2010). نظرية النص الأدبي. الجزائر: دار هومة.
16. عثمانى الميلودي. (1990). شعرية تودوروف. عيون المقالات: الدار البيضاء.
17. عدنان حسين القاسم. (2000). الاتجاه الأسلوبي البنوي في نقد الشعر العربي. الدار العربية للنشر.
18. عمر بوقمرة. (جوان، 2017). أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث. مجلة جسور المعرفة، صفحة 15.

19. موكاروفسكي. (1984). اللغة المعيارية واللغة الشعرية.
20. نور الدين السد. (2010). الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، الأسلوبية والأسلوب. الجزائر: دار هومة لطباعة والنشر والتوزيع.
21. هنريش بليث. (1999). البلاغة والاسلوبية. بيروت: افريقيا الشرق.
22. ياكوبسون، عمر أوكان. (2001). اللغة والخطاب ،افريقيا الشرق. المغرب: افريقيا الشرق ،دار البيضاء.
23. يوسف وغليسي. (2008). إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. الجزائر: منشورات الاختلاف.